الفصل الثاني

بدايات الهوية

حلقات الانفصال

أخبرتني أمي أنني حين كنت طفلاً في الثالثة أو الرابعة وجدوني أسير بمفردي في الشُّرفة المطلة على حديقة منزلنا، وقد وضعت إطار نظارة قديمًا، ووضعت ورقة ملفوفة في فمي على هيئة سيجارة : أمسكت السيجارة بيد ووضعت الأخرى خلف ظهري، وأخذت أذرع الشُّرفة ذهابًا وإيابًا بجدية واضحة. وحينما سألوني عما أفعل أخبرتهم أنني قررت أن أصبح «دكتوراً» (لعلي رأيت الدكتور كامل يسى طبيب العائلة في الليلة السابقة، ورأيت الأسرة كلها تستمع لنصائحه وإرشاداته). ولعل هذه هي أول مرة قمت فيها بطقوس الانفصال عن بيئتي التجارية تعبيراً عن رغبتي في أن أصبح شيئًا آخر. وطقوس الانفصال في بداياتها دائمًا مفتعلة ومسرحية (إذ يؤمن الإنسان بالنموذج قبل أن يتحقق في الواقع) وبخاصة في المجتمعات التقليدية حيث يهيمن النموذج السائد ولا يتقبل أي تحديات جوهرية. (ولذا كنت أشجع طالباتي من «مدعيات الثقافة» على الاستمرار في الادعاء، وأزعم أنني أصدقهن تمامًا على أمل أن يتحول الادعاء بعد قليل إلى طبيعة ثانية، ثم أخيراً إلى سليقة).

ومما ساعد على الانفصال أن الذوق الفني لأعضاء أسرتي كان مختلفًا عن بقية المجتمع لسبب لا أعرفه حتى الآن. فلا أذكر أنني استمعت لأم كلثوم مرة واحدة في منزلنا، ولذا تجدني حتى الآن لا أجيد فن الاستماع لها (والاستماع لأم كلثوم، كما يخبرني المعجبون بها، فن له أصوله). وللسبب نفسه كنت من أوائل من اكتشف فيروز، وكنت أعاني أشد المعاناة بسبب ذلك، إذ كانت أغانيها تُذاع في ساعات غريبة، فكان عليّ إما أن أسهر وإما

www.scantopdf.eu

أن أستيقظ في الصباح الباكر لسماعها. (ولا أدري هل غرامي بصوت ماجدة الرومي وكاظم الساهر هو استمرار لطقوس الانفصال هذه، أو أنه مجرد طرب لصوتين شجيين، ولمطربين يجيدان اختيار النصوص التي يتغنيان بها ؟).

وتعمقت رموز الانفصال وشعائره حينما اكتشفت ذات يوم مكتبة البلدية من خلال ابن أحد الموظفين (فلم يكن أبناء التجار مثلي يذهبون للمكتبات، وإنما يذهبون في الصيف إلى متاجر آبائهم للعمل فيها، أو يذهبون للإشراف على جمع القطن في الأراضي الزراعية التي كان كبار التجار يشترونها إما من أجل الوجاهة الاجتماعية وإما من أجل الاستثمار المضمون وتأمين المستقبل). وأذكر جيداً أن أول ما اطلعت عليه كان كتب الأستاذ كامل كيلاني الملونة للأطفال، ولم أكن قد شاهدت مثلها من قبل، فغمرني فرح لم أشعر بمثله من قبل. وقد توسم فيّ أمين المكتبة الأستاذ زويل شيئًا من الخير، وبدأ يشجعني على القراءة، وكان يختار لي الكتب بنفسه، فنصحني بقراءة كتب التاريخ، بما فيها كتاب عبد الرحمن الرافعي عن تاريخ مصر الحديث، وبعض الكتب سهلة المنال عن الفلسفة والفنون، وبعض الروايات. وأذكر أن وقعت عيناي مرة على كلمة «غُنُوصية» في أحد كتب الدكتور عبد الرحمن بدوي، فأصبت برعدة من صوت الكلمة نفسه، وقرأت عنها الكثير ولم أفهم ساعتها شيئًا، ولكنني ظللت أحاول بقية حياتي. (كنت أحرص وأنا أدرِّس في الجامعة أن ألقي أول محاضرة في معظم المقررات في المكتبة، لأخبر الطالبات بطريقة الاستعارة وتقسيم المكتبة، وأنواع الكتب: موسوعات ومعاجم وكتب إرشادية ومراجع وكتب فن. وكان كثير من الطالبات يقلن لي إن هذه المحاضرة كانت تشكل لحظة فارقة في حياتهن، تمامًا مثل زيارتي لمكتبة دمنهور).

وقد بدأت في اقتناء الكتب، وهي عادة غير معروفة في أوساط أبناء التجار (كان والدي - رحمه الله - يقول لي دائمًا: «انته مما عندك من كتب، ثم اشتر غيرها بعد ذلك»). ولذا لم يكن من الممكن أن أطلب ثمنًا للكتب التي أشتريها، مما كان يتطلب مناورات كثيرة. بل كنت أحيانًا أستغنى عن ساندوتش الفسحة الصغيرة الذي كنت أشتريه من كانتين المدرسة، لأشتري بثمنه كتابًا.

ومن خلال علاقتي بابن الموظف الدكتور محمد شقير (الطبيب الذي يعمل الآن في أحد مستشفيات كندا) تفتَّح أمامي عالم مختلف تمامًا، كان أبوه يعمل ناظرًا لمدرسة

www.scantopdf.eu

الزراعة، لاحظت أنه هو وأسرته أقل ثراءً من الناحية الاقتصادية من أسرتي، إلا أن أسلوب حياتهم أجمل. كنت أراه يقرأ الكتب، وحينما أذهب إلى منزلهم ألاحظ أنهم يتحدثون في أشياء كثيرة متنوعة، وكانت هناك لوحات على الحائط وتحف في دولاب الفضيات (أذكر بالذات زجاجة صغيرة زرقاء عميقة الزرقة كنت أغوص داخلها حينما أنظر فيها، وما زلت أشعر تجاه الزرقة بالضعف الشديد). وبدأت أدرك أن ما يحدِّد حياة الإنسان ليس بالضرورة العنصر الاقتصادي.

كان يمكن لكل هذه التجارب التي خضتها كطفل أو صبي يافع أن تتحول إلى مجرد تجارب شخصية، وألا أدرك مغزاها الاجتماعي، وألا أعمم منها نماذج تحليلية، وألا تساعدني على ولوج عالم الفكر، لو لم ينعم الله عليّ بمدرسين (وأساتذة جامعيين) ساعدوني ودفعوني ودعَّموا ثقتي بنفسي وساعدوني على التفكير النقدي (والثقة بالنفس ضرورية كي يمكن للمرء أن يعمم ويصوغ نماذج تفسيرية).

وفى بداية المرحلة الثانوية بدأت اتجاهات دينية تنمو داخلى، فدخلت جماعة الإخوان المسلمين (كما أشرت من قبل) وكان أول من اهتدى على يدى طباخ نوبى كان يعمل عندنا، فكنا نقضى معظم الليل نقرأ القرآن، وكنت أؤذن للصلاة فى شعبة الإخوان المسلمين فى دمنهور، ثم امتد نشاطى إلى قرية إفلاقة بجوار دمنهور. وبرغم أن سنى كان لا يتجاوز الثانية عشرةفإن القرويين ارتضوا أن أؤمهم فى الصلاة، وأخطب فيهم الجمعة. واستمرت هذه العملية بضعة شهور، إلى أن نبهنى أحد الإخوة أن هذا أمر يخالف الشرع بسبب صغر سنى (برغم أننى كنت قد تفقهت فى الدين من خلال عدد من الكتب وبخاصة كتاب فقه السنة للشيخ سيد سابق). وكانت هذه الفترة من حياتى قصيرة (لا تتجاوز العامين) إذ انهالت على الأسئلة التى بدأت فى تقويض إيمانى البسيط والمباشر -كما سأبين فيما بعد.

وقد قضيت مرحلة الدراسة الثانوية فى مدرسة دمنهور الثانوية. وكان هناك عدد كبير من المدرسين الشبان ممن يودون الاستمرار في دراستهم العليا في الإسكندرية ولم يُعينوا في الجامعة، ولذلك كانت دمنهور مكانًا مناسبًا للغاية لهم، فهي تبعد ٦٠ كيلومترًا فقط عن الإسكندرية، وبوسعهم الإقامة أو العمل فيها والذهاب إلى الإسكندرية لإعداد أطروحاتهم الجامعية.

www.scantopdf.eu

كان من أهم أساتذتي الأستاذ شفيق، مدرس الجغرافيا، والأستاذ غزلان، مدرس الطبيعة، والأستاذ روفائيل مدرس التاريخ الذي توسَّم فيّ خيراً (دون أي مقدمات من جانبي أو أي شواهد من سجلي الدراسي) وأعلن للطلبة أنني عبقري وأنهم يجب ألا يقارنوا أنفسهم بي، وبدأ يطلب مني أن أكتب «أبحاثًا» خارج المقرر. وحين كنت أنتهي منها كان يقرؤها على الطلبة، الأمر الذي كان يسبب لي حرجًا شديداً وسعادة بالغة في الوقت نفسه. لم أكن أفهم سر حماسته لي، فحتى ذلك الوقت (سنة ثالثة ثانوي) كان إحساسي أن ذكائي عادي وربما أقل من العادي، ويشهد بهذا أدائي المدرسي: الرسوب في السنة الثالثة الابتدائية والنجاح من الدور الثاني، مجموع منخفض للغاية في الشهادة الابتدائية، وإعادة سنة أولى ثانوي، والرسوب في السنة الثانية الثانوية والنجاح مرة أخرى من الدور الثاني، ودرجات منخفضة للغاية، وكره عميق للرياضيات واللغة الإنجليزية، ودروس خصوصية في وقت لم تكن فيه مثل هذه الظاهرة معروفة. وكنت الطالب الوحيد الذي رسب في مادة الرسم في السنة الأولى الثانوية. ومع هذا، قرر الأستاذ روفائيل أن لديّ شيئًا ما، ولذا وجدتني مضطرّاً إلى ألا أخيب ظنه وأن أقدح زناد فكري كي آتي بأشياء «عبقرية» كما هو متوقع مني. وتحسن أدائي الدراسي بعد ذلك بسرعة أذهلتني أنا شخصيًا.

أما الأستاذ إميل جورج (الدكتور الآن) فكان هو بداية حياتي الفكرية الحقيقية. كان أستاذًا بمعنى الكلمة، درسنا عليه الفلسفة في التوجيهية (عام ١٩٥٤/ ١٩٥٥) وحبَّب إلينا مادته. كان يعرض لنا أعمق المسائل الفلسفية بطريقة بسيطة، وكان يبث الشك في نفوسنا ولكنه لم يكن لا يقذف بنا في هوة العدمية، فكان نعم الأستاذ. وحينما أقابله هذه الأيام وأتحدث معه، أجد فيه الحيوية المتجددة والفكر المتقدم وأدرك أهمية المُعلم، فلولاه لضيَّعت من عمري سنوات وسنوات، أقرأ ما أقرأ دون أن أصل إلى الأعماق، أراكم المعلومات دون إدراك لأبعادها ومعناها.

كانت تجربتي مع التعليم في مصر سعيدة للغاية (باستثناء حصص الحساب اللعينة). وكم كانت سعادتي حين كان يحين وقت تسلم الكتب أول العام، ومازلت أذكر ما قرأته في كتب التاريخ والجغرافيا والفلسفة! وإلى جانب الدرس والتحصيل على يد مدرسين يحبون موادهم ويوصلونها بطريقة محببة للطلبة. كان هناك وقت فراغ نمرح فيه ونلعب إلى جانب حصص الألعاب والأشغال والرسم والموسيقى والفلاحة والخط. وأرتجف

www.scantopdf.eu

الآن حين أفكر فيما يحدث لصغارنا في المدارس وشبابنا في الجامعات الذين يُكبلون بالكتب المعلوماتية الثقيلة (المطبوعة بشكل رديء)، والذين يقضون كل وقتهم في دراسة مواد ينسونها بعد مرور شهر، ولا تترك لهم أي مجال للعب أو التنفس، والذين يقابلون في الفصل مدرسين يحولون الحصة المدرسية إلى تكأة لحشد التلاميذ للدروس الخصوصية. (حينما عاد ابني من الولايات المتحدة مع أخته عام ١٩٧٩، لم يكن يعرف سوى الإنجليزية. وأردنا أن نلحقه بإحدى مدارس اللغات، التي اشترطت أن يجتاز امتحان قبول في اللغة الإنجليزية. فلم نمانع بطبيعة الحال. ولكننا فوجئنا بمكالمة تليفونية من أخته تخبرنا فيها أن ياسراً قد رسب في امتحان اللغة الإنجليزية. فاختلط الأمر عليّ قليلاً وسألتها: «هل اللغة الإنجليزية هي الـ English»؟!، وحينما جاء الرد بالإيجاب، عرفت أن احتفال الاستقبال المصري قد بدأ، وعلمت فيما بعد أن الأستاذ الممتحن كان يطمع في إعطاء ابني «دروس تقوية» حتى يمكنه اجتياز الامتحان، وأذعنا للأمر الواقع، والقوي هو الله. كان التعليم في مصر مجانيّا ممتعًا، وبالتدريج أصبح غير مجانيٍّ بسبب الدروس الخصوصية، ثم أصبح لا علاقة له بالتعليم، إذ أصبح التعليم الآن هو اكتساب مقدرة اجتياز الامتحانات).

كانت المدرسة - كما أسلفت - تجربة ثرية وممتعة بالفعل، ومع هذا يجب أن أذكر ما حدث في مادة الفلسفة في التوجيهية. فمن فرط حبي الشديد لها وتفوقي فيها، كنت أشرح لأصدقائي ما غمض من معانيها. وقد حصلوا جميعهم على درجات عالية في الامتحان النهائي، خصوصًا فاروق المسيري (رحمه الله) ابن عم والدي، فقد حصل على أعلى درجة فلسفة على مستوى الجمهورية ٣٦/ ٤٠ عام ١٩٥٥، أما أنا فحصلت على ١٨/ ٤٠، أي الحد الأدنى المطلوب للنجاح. ويبدو أنه ليس المطلوب من طلبة التوجيهية أن يقولوا رأيهم الخاص في فرانسيس بيكون Francis Bacon، على سبيل المثال، مثلما فعلت. (ولعل هذا هو السر وراء رسوبي في مادة الرسم، إذ قررت أن أكون مبدعًا وأصيلاً، ولا حول ولا قوة إلا بالله). وقد حدث شيء مماثل لابنتي في شهادة الـ GCE عام ١٩٨٠. فقد حصلت على امتياز في كل شيء إلا مادة الشعر التي كنت قد درستها معها، فأتيت لها بأستاذ لا يجيد الإنجليزية أو الشعر ولكنه أتقن مهارة تدريب الطلبة على اجتياز الامتحانات، وطلبت إلى ابنتي أن تنسى كل ما درسته معي أو مع غيري، وأن تنفذ ما يطلبه منها المدرس بحذافيره، ففعلت وحصلت على الامتياز. وقد قابلت الملحق

www.scantopdf.eu

الثقافي البريطاني وبيَّنت له خطورة هذا الوضع ؛ أن تتحول المدرسة إلى مؤسسة لتسطيح العقول والشخصيات. ويبدو أن هذا هو الاتجاه العام في العالم، وهو جزء من عملية الترشيد والتنميط التي ازدادت سرعة في الآونة الأخيرة. وقد تعلمت من هذه التجارب أن النجاح والفشل في الحياة العامة، حسب المعايير السائدة، ليسا بالضرورة حكمًا مصيبًا أو نهائيًا، وأن الإنسان قد يفشل بالمعايير السائدة، ولكنه قد ينجح بمعايير أكثر أصالة وإبداعًا.

الرموز والطقوس وداء التأمل

ثمة عناصر كثيرة في شخصيتي ساعدت على تعميق انفصالي عن محيطي وولَّدت فيَّ الرغبة الدائمة في التفلسف وتفسير أي شيء يحدث لي وعدم قبوله على علاته، وهو الأمر الذي أدى في نهاية الأمر إلى ظهور مفهوم المسافة (الذي سأشرحه فيما بعد). وأول هذه العناصر أن بعض الأشياء كانت تكتسب قيمة رمزية في عقلي غير قيمتها الوظيفية. فالمكرونة، كانت بالنسبة لي، هي السحر بعينه (كنت أتصور في طفولتي أنها هي طعام أهل الجنة)، ولذا كان تناولها يعني تجربة شبه روحية لا علاقة لها بإشباع الحاجة البيولوجية للطعام. كنت آكل منها لا بمقدار حاجتي الغذائية المادية، وإنما بمقدار حاجتي النفسية أو العاطفية أو حتى الروحية إن شئت (ولذا كنت أنظر بشيء من الفهم لحالة الخديو عباس الثاني، الذي يقال إن مستشاريه الأجانب سيطروا عليه من خلال المكرونة. كما تفهمت حالة الملك فاروق، الذي يقال إنه أصيب بأزمة قلبية بعد أن تناول كمية هائلة من المكرونة). أما الأرز، فكان مرتبطًا في ذهني بالطمأنينة وبالعودة إلى المدينة. ولذا بعد عودتي من رحلة مدرسية كنت أطلب من أمي أن تطبخ لي بعض الأرز، فكانت تقدم لي كل أنواع الطعام، ولكن هيهات، فالأرز بعد الرحلة لم يعد طعامًا أملأ به معدتي وإنما مسألة ذات دلالة رمزية: ولم يكن من الممكن أن تفهم عالمي الرمزي، كما لم يكن من الممكن أن أقبل منطقها الوظيفي. ولم أتخلص قط من هذا الميل نحو الترميز. فقد أصبح السيجار رمز الهدوء والاستقرار والإنجاز، وكثيرًا ما تكتسب أطروحات الكتب التي أكتبها بُعدًا رمزيًا، يجعل منها جزءًا من معركة الإنسان مع كل ما يتهدده. وعلى سبيل المثال، تحولت الموسوعة إلى معركة الإنسان ضد الظلم، وإلى هذا الصراع الأبدي بين الإنسان الإنسان (الذي يحاول تجاوز عالم الحواس الخمسة) والإنسان الطبيعي/ المادي، الذي يقبع فيه قانعًا راضيًا. وأتصور أن هذا الميل نحو الترميز ساعدني كثيرًا على الانفصال عن بيئتي

www.scantopdf.eu

المباشرة، إذ خلقت لي الرموز عالمي الخاص. كما أن الرمز ولا شك شكل من أشكال النموذج، فهو عنصر من العالم المادي، ولكنه يعلو عليه إلى أن يصبح علامة مكثفة على عناصر كثيرة، قد يبدو لأول وهلة وكأن لا علاقة بينها.

ويرتبط بهذه النزعة نحو الترميز ما أسميه «النزعة الطقوسية»، إذ أميل لأن يصبح كل حدث مهم في حياتي جزءاً من طقس خاص جدّاً وأقوم أنا بتطويره. فكنت في طفولتي أبدأ استذكاري بأن أضع زهرة في مزهرية، أو أحلم بها إن لم يكن هناك زهرة. وحينما تقدمت بي السن طورت مفهوم «الشاي غير البيولوچي»، وهو أي قدح من الشاي لا أحتاج إليه من الناحية المادية ومع هذا أشربه مع صديقي كي أستأنس به. (قد تطور هذا فيما بعد ليصبح مفهوم «الأبوة غير البيولوجية» حين أقوم بتبني بعض الأيتام من ضحايا العصر الحديث).

حينما انتقل والدي إلى رحمة الله ذكرت الطقوس الخاصة التي قمت بها في نيويورك (**مشاهدة مسرحية برخت القاعدة والاستثناء**). وحينما انتقلت والدتي إلى رحمة الله، وبعد أن شهدت جنازتها ودفنها، قررت أن أقيم طقوس الجنازة بطريقتي الخاصة جدّاً والملائمة للموقف، فقررت أن أشرب بعض المشروبات التقليدية التي كانت تتناولها (التليو - الحلبة - منقوع ورق الجوافة - الآنسون)، فذهبت إلى أحد العطارين في الحسين، وأشرت إلى أحد الأجولة، ولكي أظهر مهارتي قلت للرجل : إن هذا التليو ليس جيداً، فقال متجهماً : «هذا ليس تليو يا سعادة البيه". فأدخلت لساني في فمي، وقدمت له قائمة المشروبات دون جدل أو حذلقة.

ومن أهم الطقوس في حياتي طقس «ساعة الصفاء» (الذي طورته مع صديقي الفنان رحمي)، وهو المقدرة على الانسحاب من الزمان، بحيث يعيش الإنسان «لحظات ليست كاللحظات» خارج الزمان، ومن ثم يمكنه أن يستعيد تكامله وإنسانيته (بعد أن يكون قد فَقَدَ بعضاً منهما في معترك الحياة وتفاصيلها التي لا تنتهي)، على أن يظل الإنسان واعياً تماماً بأن هذه لحظات مؤقتة وحسب، وأنها لابد أن تنتهي، ومن ثم فهي ليست نهاية التاريخ والتدافع والأحزان والأفراح. (أو كما أقول في إحدى القصص التي كتبتها للأطفال : «كل الأشياء الجميلة تنتهي ! كل الأشياء الحزينة تنتهي»). وقد حاولت تطبيق هذا المفهوم في حياتي حتى لا يتحول الاستمرار إلى تكرار وروتين، فلحظة الصفاء تجلب

www.scantopdf.eu

عنصراً من الإبداع إلى الحياة الاجتماعية اليومية. وقد تعلمت أنا وزوجتي أن نمارس لحظات الصفاء هذه، مهما كانت الحياة قاسية علينا. ساعتها نطلب من أولادنا أن يبتعدوا عنا بعض الوقت، ونجلس وحدنا نحتسي القهوة وأدخن سيجاراً، فتتجدد العلاقة المباشرة بيننا ولا تضيع منا في الزحام والتفاصيل. كما تعلم كثير من أصدقائي طقس لحظة الصفاء هذه، إلا أنني كنت أمارسها أيضًا مع بعض الأصدقاء ممن لا يعرفونها، فنعيش معًا «ساعة صفاء» دون إدراك من جانبهم.

وكان هناك أيضًا ما أسميه «الحمام الطقوسي» الذي آخذه بعد الانتهاء من كل مؤلف من مؤلفاتي. كما أنني حينما كنت في الولايات المتحدة طوَّرت طقس «الحمام الفكري»، فحينما تستعصي عليّ فكرة ما أذهب لآخذ حمامًا ساخنًا، وتحت الدش تبدأ الأفكار تتلاحم والعلاقات بينها تتضح، وأحل الإشكالية الفكرية التي تواجهني. (أخبرني أحد الأطباء أن هذا الطقس الأخير له أساس مادي، إذ إنني أشكو من الحساسية من حبوب اللقاح المنتشرة بكثرة في الولايات المتحدة. ولذا حينما آخذ دش ماء ساخن فإن البخار المتصاعد يقوم بتنقية الجيوب الأنفية، فيسهل التنفس ويتصاعد الأوكسچين إلى مخي فأقوم بالتفكير في حرية أكبر).

وهذه النزعة الطقوسية هي في واقع الأمر نزعة لأن أضع حدوداً بيني وبين الواقع المادي المباشر، وهي في هذا تشبه وعيي بالتاريخ والفن. كما أنها تطورت فيما بعد لتصبح ميلاً نحو بلورة المقولات التحليلية وإدراك مستويات الواقع المختلفة. وقد زادت هذه النزعة في الولايات المتحدة، فهو بلد لا يحترم الطقوس ولا يعرف منها إلا أقل القليل. وطقوس الانتقال من مرحلة عمرية لأخرى إما غير موجودة أساسًا وإما مختلفة عما ألفته، فهي ليست ثرية بما فيه الكفاية، كما أنها، في معظم الأحيان، تأخذ شكلاً استهلاكيًا واضحًا (مثل احتفالات بلوغ سن الرشد عند اليهود [البارمتزفا]، أو احتفالات دخول الجامعة أو التخرج منها). ولعله لحماية ذاتي ولإحاطتها بسياج تفصلها عما حولها، لم يكن بُد من أن أقيم الطقوس وأهتم بها.

ولكن أهم العناصر التي ساعدت على انفصالي ما أسميه «داء التأمل» الذي أصبت به في يوم من الأيام في طفولتي أو بدايات الصبا (ربما في سن الثانية عشرة) حينما أدركت مقولة الزمان وأننا نعيش داخله، وأن حياتنا هي الزمان. وبناءً عليه انطلقت من هذه

www.scantopdf.eu

المقولة، فكنت- توفيراً للوقت، وبالتالي «إنقاذاً لحياتي»- أطلب من إحدى الخدم أن تحضر لي حذائي (على سبيل المثال). وقد اكتشفت والدتي هذا الأمر فأعطتني علقة ساخنة. فبورجوازية الريف لا تعرف الرؤية الهرمية التي تقسِّم الناس إلى أسياد وخدم، بشكل حاد. وعبثًا حاولت أن أشرح لأمي أن المسألة ليست «عنطزة» أو «منظرة» (ادِّعاءً)، وإنما هي إحساس عميق بالزمان! المهم، بعد هذا الانقسام الذي حدث داخلي، وبعد هذا الإدراك العميق لمقولة الزمان، بدأت أتأمل كل شيء يحدث لي، وأمارس الحزن والفرح من خلال تأملاتي (وهذا في تصوري يعمِّق كلاًّ من الحزن والفرح، وإن كان يقلل من حدتهما كثيراً).

ولا أدري هل هذا التأمل المستمر هو المسئول عن أنني كنت في طفولتي دائمًا أفقد النقود التي تعطيها لي والدتي لشراء أي شيء. حاولت عبثًا إصلاحي من هذه الناحية، ولكن هيهات إذ كنت دائمًا أسهو عما حولي فأفقد نقودي. (مازلت أفقد نظارتي في منزلي وأكوِّن فرقًا للبحث عنها. وقد أصبحت زوجتي متخصصة في العثور عليها من خلال استجوابي وعما فعلت في نصف الساعة السابقة، ومن خلال إجاباتي تبدأ في تصور الأماكن التي ربما أكون قد مررت بها، وعادةً ما تعثر على النظارة في نهاية الأمر. ومن رأي أمي أنني إنسان «ملهوج» [عَجُول]، أي في عجلة من أمري، أهمل التفاصيل وأنساها، ولذا أفقد نقودي ونظارتي).

استدعاني مرة أحد كبار المسئولين (في أوائل الثمانينيات) وأخبرني أن مصر على وشك أن تتقدم باقتراح لهيئة الأمم لنزع الأسلحة النووية وأراد مني أن أقوم بترجمة الاتفاقية المقترحة نظراً لخطورتها وسريتها (لحين عرضها على هيئة الأمم). فقبلت على الفور. ولكنني مع هذا ذهبت لزيارة ابنتي في الجامعة الأمريكية ونسيت المعاهدة السرية المقترحة على كرسي هناك. ومن فرط يأسي أخذت أضحك، وأخبرت أبنائي أن الحل الوحيد لمثل هذه الحالة هو الانتحار على طريقة الهاراكيري اليابانية. وحيث إنني لم أكن أنوي أن أفعل ذلك، لم يكن هناك أمامي من حل سوى الانتظار لليوم التالي. وبالفعل ربنا ستر ووجدت المظروف الذي يحوي اقتراح الاتفاقية في مكانه ولم يكن قد مسه إنسٌ ولا جان.

وقد جعلني التأمل قادراً على الانفصال عما حولي وأن أنظر إلى نفسي من الخارج،

www.scantopdf.eu

الأمر الذي ولَّد فيَّ مقدرة غير عادية على تغيير الذات بناءً على تصورات عقلية مسبقة. قد يأخذ تكوين التصورات العقلية وقتًا طويلاً ولكن عملية التغيير ذاتها كانت تتم في لحظات (كنت في طفولتي سريع التأثر بما حولي، وكانت دموعي تتساقط وبسرعة، فكانوا يسمونني «العيوطة»، أي سريع البكاء. وكان هذا الأمر يسبب لي حرجًا كبيراً أمام أقراني، فقررت وأنا في سن العاشرة أن أتغلب على هذا العيب، وقد نجحت خلال عدة أيام أن أمنع دموعي من التساقط ! فحينما اجتاحني الشك الديني كنت في طريقي إلى المسجد في رمضان، وحينما قررت اعتزال كرة السلة كنت في ملعب كرة السلة).

ومن أهم القصص في حياتي الخاصة التي تلقي ضوءاً على هذا الجانب من شخصيتي، قصة زواجي من د. هدى. وحينما قابلتها لأول مرة حدث لي ما حدث، وكان لابد من أن أتأمل فيه وأفهمه «عقليّا» حتى يمكنني التعامل معه. وكنت حينذاك عضواً في الحزب الشيوعي المصري. فطلبت النصح من مسئولي الحزبي، فأخبرني أنها «بورجوازية»، والزواج من مثلها يسبب مشكلات كثيرة، أي أن المسئول عني في الحزب طرح تصوراً عقليّا أيديولوجيّا (طبقيّا) للحب والزواج. وهداني وجداني (وربما فطرتي السليمة) إلى أن أذهب لأمي أطلب منها النصح (وهو أمر نادر للغاية، لعلي لم أفعله من قبل أو بعد). فسألتني سؤالاً بسيطًا للغاية وهو : «هل يشعر قلبك بالفرح حينما تراها؟» لم أجب عن السؤال، ولكنني أحسست ساعتها أن أثقالاً أيديولوچية وتحليلات طبقية مادية سقطت عن وجداني، وأن أغلال العقل والقلب بدأت تنفك، وقررت الارتباط بالدكتورة هدى. ولعل هذه كانت من أوائل أحداث حياتي التي يهتز فيها النموذج المادي الوظيفي كإطار للرؤية.

(من الطريف أن المكان المفضل لنا للقاء في فترة الخطوبة كان الدور العلوي في ترام الرمل، فقد كان هادئًا وجميلاً، وكنا نطل على الإسكندرية كلها منه، وأحيانًا نرى البحر. ونشأت علاقة بيننا وبين محصلي التذاكر، فإذا ركبت الترام بمفردي، كانوا يسألونني : «أين المزمازيل؟». كان الترام مكانًا يصلح للقاء المحبين، أما الآن فهو حلبة صراع داروينية!).

ولكن داء التأمل لم يتركني لحظة بعد ارتباطي بالدكتورة هدى، إذ بدأت أتساءل : إذا كان الحب الرومانتيكي يوجد خارج الزمان ولا يعرف التاريخ أو التدافع، فكيف يمكن

www.scantopdf.eu

للمرء أن يتزوج (ويدخل الزمان)؟ كيف يمكن لمن يحب بهذه الطريقة اللازمنية أن يترك من يحب ويذهب إلى عمله (على سبيل المثال) ؟ ولكني تساءلت أيضًا، كيف يمكن للإنسان، في الوقت ذاته، أن يتحمل مثل هذه العواطف المشبوبة بشكل يومي ؟ هل يتحمل جهازه العصبي مثل هذا العبء ؟ ولم يوقف عملية التفكير هذه إلا الزواج نفسه، إذ اكتشفت ميلاد نوع جديد من الحب القادر على التعايش مع الزمن والتاريخ والمجتمع، فالحب في الزواج يتسم بنوع من الاستمرار. ساعتها بدأت أفهم مفاهيم مثل السكينة والمودة والألفة، وبدأت أعرف أنها تشكل نوعًا من العلاقة العميقة داخل الزمان، ولكنها مختلفة عن الحب الرومانتيكي اللازمني. (ألاحظ أن أبناء هذا الجيل الذين يتبنون عن غير وعي أيديولوچي الحب اللازمني [فهذا ما تتحدث عنه كل الأغاني، وما تفترضه كل الأفلام، وما تروِّج له أجهزة الإعلام]، يصبحون غير قادرين على التعايش داخل مؤسسة الزواج، فكل فرد متوجه بشكل حاد نحو السعادة الفردية، ونحو اللذة، مما يجعل التعايش مع الآخر داخل إطار واحد مسألة مستحيلة، أو شبه مستحيلة).

وقد خضعت حياتي الزوجية هي الأخرى للتأمل. أذكر أنني بعد أن تزوجت حان الوقت لأخذ صورة الزفاف التقليدية، فجلست أتأمل في هذا «الفعل البورجوازي» : أن أرتدي بذلة الزفاف وترتدي زوجتي فستان العُرس ونذهب معًا إلى الإستوديو ونتصنع الابتسامة والسعادة ليلتقط لنا المصور صورة رسمية ! واستمرت حالة التأمل عدة سنوات، ولم أقف هذه الوقفة الرسمية إلا بعد أن عرفت أن زوجتي قد حملت، فقررت أن أسلم أمري إلى الله على أن أستمر في التأمل فيما بعد!

ومن خلال تأملاتي في تجاربي وتجارب الآخرين أصبح عندي رؤية ومفهوم للزواج. فكنت دائمًا أخبر نفسي وغيري أن السعادة لا تهبط هكذا من السماء ، وإنما هي مثل العمل الفني، لابد أن يكد المرء ويتعب في صياغته وصنعه. والزواج، مثل العمل الفني أيضًا، ومثل أي شيء إنساني مركب، يحتوي على إمكانات سلبية وإيجابية، ولا يمكن فصل الواحد عن الآخر. وكثيراً ما كنت أخبر طالباتي بأن الحب الحقيقي هو أن يقبل الواحدُ الآخرَ ويعرف أن محاسنه مرتبطة تمام الارتباط بمثالبه. كما طوَّرت مفهوم «إعادة الزواج من نفس الزوجة»، إذ تتغير الظروف والأوضاع وتتغير الشخصية والتوقعات فيُعاد النظر في أسس العلاقة ويُعاد تشكيلها بما يتفق مع الرؤية الجديدة. وأزعم أنني تزوجت من زوجتي ثلاث مرات، المرة الأولى التقليدية، والثانية بعد حصولي على الدكتوراه،

www.scantopdf.eu

والثالثة بعد حصولها هي على الدكتوراه. ولعل مفهوم «إعادة الزواج من نفس الزوجة» قد يحل بعض المشكلات التي يقابلها الناس في زيجاتهم، إذ يتصور كل طرف في العلاقة الزوجية أن الآخر نمط محدد لا يتغيَّر، ومن ثم فالتوقعات، والأحزان والأفراح، لا تتغيَّر. وهو تصور غير إنساني، فثمة قدر من الثبات، ولكن ثمة قدراً من التغيُّر أيضًا، ولابد أن يأخذ الإنسان كل شيء في الحُسبان.

ومن الطريف أنني كنت أتصور أنني تزوجت من د. هدى لأنها مختلفة في كثير من النواحي عن أمي، ولكني اكتشفت - بعد قدر لا بأس به من التأمل - أنها تشبهها في كثير من النواحي، فهي الأخرى أم مطْلَقة وشاملة تتسم بهذا الإيمان الريفي الصارم بالعدل والمساواة، وهي مثلها تحب النظافة بشكل أراه متطرفًا وتراه هي أقل من المعتاد. لكل هذا أقول مازحًا إنني مصاب ببعض ملامح مركب أوديب.

ولعل الجانب الكوميدي من التأمل يظهر في هذه الواقعة. حينما كنت أدرِّس في كلية البنات، كنت أحاول أن أؤدي أدواراً كثيرة من بينها دور الأب («الأبوة غير البيولوجية»). ومرة قابلت إحدى طالباتي الحوامل وسألتها متى سترزق بالمولود، فقالت: «بعد شهرين». وبعد شهرين، قابلتها في القسم فسألتها هل رُزقت ولداً أو بنتًا، لأقابل بضحكات الطالبات العالية، فالطالبة الحامل لم تكن قد ولدت بعد. ولكنني قمت بعملية حسابية عقلية، وجلست في عالمي العقلي الهادئ المنظم أطل منه على عالم الزمان والولادة والموت دون أن أنزل للتفاصيل المباشرة. ولعل هذه المقدرة على الانفصال المؤقت عن الواقع هي التي مكنتني من كتابة **الموسوعة** فيما يزيد على ربع قرن، كان الصراع العربي الإسرائيلي في أثنائها يأخذ أشكالاً كثيرة، ويتوهم البعض أنه اقترب من لحظته النهائية، وأننا على وشك دخول عالم السلام الدائم. ولكنني لم أتوقف عن التأمل والتفكير والكتابة.

أما الجانب المظلم للتأمل (فهو يفصلني عن الواقع ويجعلني أعيش في عالمي الفكري [والأسطوري] الخاص) فيظهر في تلك الواقعة: كنت في الولايات المتحدة عام ١٩٧٠ أكتب كتاب **أرض الوعد** مستغرقًا تمامًا فيه. ثم اتصلت بي زوجتي وأخبرتني أن بعض اللصوص هاجموها واختطفوا حقيبتها وفروا وأنها ستتأخر حتى تنتهي الشرطة من التحقيق. وبعد ساعة وصلت إلى المنزل ولم أتحرك من مكاني واصلت الكتابة، فانفجرت باكية فأدركت جرمي، واعتذرت لها عما فعلت.

www.scantopdf.eu

وقد لازمني داء التأمل عبر حياتي، ولم يولد الإيمان داخلي إلا من خلال رحلة عقلية طويلة، ولذا فإيماني إيمان تأملي عقلي، لم تدخل عليه عناصر روحية، فهو إيمان يستند إلى إحساس بعجز المقولات المادية عن تفسير ظاهرة الإنسان وإلى ضرورة اللجوء إلى مقولات فلسفية أكثر تركيبية .

ولكني برغم غرقي في التأمل حرصت دائمًا على ربط العام والخاص معًا، وقد عمقت دراستي للرومانتيكية من هذا الاتجاه. فالحقيقة - حسب النظرية النقدية الرومانتيكية والشعر الرومانتيكي - ليست شيئًا مجردًا «يضاف» إلى الظواهر، بل هي شيء كامن فيها لصيق بها، يشعر به الإنسان من خلال خفقات قلبه ونبضات عروقه، أي أن الحقيقة قد تكون شيئًا عامّا يصل المرء إلى بعض ملامحه من خلال العقل، ولكن كي يصل إلى جوهره وكليته فلن يمكنه ذلك إلا من خلال الخاص، ومن خلال الوجدان والقلب. ولعل اختياري للنموذج كأداة تحليلية هو تعبير عن هذه الرغبة .

ومازلت حتى الآن أحاول قدر استطاعتي ألا أعيش في العام وحسب، وأن أختبر المقولات الأيديولوچية على محك الأشياء المباشرة والوجدانية. وقد توصلت إلى أن الأيديولوچية قد تكون قناعًا يختفي وراءه الإنسان بحيث يتحول إلى عقل محض، وقد يختفي الإنسان تمامًا إلى درجة أنه يموت قلبًا لا قالبًا (ولذا تجدني لا أومن بالزيجات الأيديولوچية، فهي مثل الزيجات المبنية على المصلحة أو الزيجات التي تجف ولا تتخللها أي عاطفة أو لحظات صفاء أو ذكريات وأساطير مشتركة، تتحول بعد فترة إلى ما يشبه اللجنة المنعقدة بشكل دائم. ومع هذا أرى أنه من الضروري أن يشترك الزوجان في نقط الانطلاق والمثاليات وسلم الأولويات الأساسية، فالتعارض على هذا المستوى يولّد توترات لا يمكن لمؤسسة الزواج تحملها) .

و لا يعني هذا أنني تحررت تمامًا من قبضة المجرد والعقلي والمطلق، إذ يظل شيء ما داخلي يميل إليهم، فهذا مكوِّن أساسي في شخصيتي. كما أن موقفي من الزمان لا يزال فيه شيء من الانفصال، إذ إنني أعامله وكأنه مادة ثمينة مطاطة، إذ أحاول الحفاظ على كل دقيقة وثانية، أحمل في جيبي دائمًا أوراقًا لأكتب فيها أو كتبًا لأقرأها. وإن وجدت نفسي واقفًا أصنع الشاي لنفسي وعليَّ انتظار الماء حتى يغلي، ففي هذه الدقائق أؤدي بعض التمرينات الرياضية حتى لا أضيع وقتي (تعلمت هذه العادة من قراءاتي عن الصين الشعبية

www.scantopdf.eu

في أثناء الثورة الثقافية) كما أنني أحاول أن أنجز داخل الزمان ما لا يمكن إنجازه، وكثيراً ما أضع لنفسي جداول عمل مستحيلة التحقيق .

جامعة الإسكندرية

تخرجت في مدرسة دمنهور الثانوية عام ١٩٥٥ ، وحملت عصا الترحال، شأني شأن كثير من الدماهرة، إلى الإسكندرية . ذهبت إلى هناك أحمل إدراكي المركب وثقتي بنفسي، وفجأة وجدت نفسي في قلب مدينة مصرية اسمًا، غربية فعلاً . كنت أقطن في الإبراهيمية التي كانت جالية يونانية كبيرة تعيش فيها ؛ حتى بائع الخضر كان ينادي على بضاعته باللغة اليونانية . وفي بعض المطاعم لم يكن بُد من الحديث باليونانية أو الفرنسية . وإلى جانب هذا كانت هناك نواد للسينما تعرض علينا أحدث الأفلام الأوربية، وحفلات موسيقية، جو كوزموبوليتاني زائغ لا جذور له يمكن أن يثري الإنسان ويمكن أن يبتلعه . ذهبت إلى قسم اللغة الإنجليزية وآدابها، بكلية الآداب، حيث كان الجميع يتحدث الإنجليزية، وكان كثير من الطلبة أجانب من أصل يوناني أو إيطالي (كانت دفعتي الدراسية تضم سيمون تليماك جوانيدس وماري نيكولاي وغيرهما) . وحتى المصريون الخلص كانوا أجانب، إذ كانوا لا يعرفون العربية ولا يعرفون إلا أقل القليل عن مصر . حتى جدول المحاضرات كان مكتوبًا باللغة الإنجليزية، ومقسَّمًا إلى مربعات أفقية ورأسية لم أفهم منها شيئًا . أصابني الدوار، ولم يكن هناك أي شيء في خلفيتي يساعدني على التعامل مع هذا الموقف . وحينما ذهبت إلى الحلاق وأسلمت رأسي لهذا الأجير الذي لا يعرفني ولا يعرف أبي أو أخوالي، عرفت أنني قد ذهبت إلى الجيسيلشافت، المدينة التعاقدية .

وبمقدرة الدمنهوري غير العادية على البقاء، قررت التحرك بسرعة لأكتشف الآليات الجديدة المطلوبة لتحقيق البقاء، وأهمها إجادة اللغة الإنجليزية، فحبست نفسي في غرفة لمدة شهر كامل لا أسمع إلا الإذاعات المتحدثة بالإنجليزية ولا أقرأ سوى الجرائد والمجلات الإنجليزية . وعُدت بعد الفصل الدراسي الأول وقد تملكت ناصية اللغة بشكل أدهش أساتذتي . وفي الصيف، أحضرت أطنانًا من الكتب العربية التي تتناول تاريخ الغرب والفكر الغربي والفن الغربي والفلسفة الغربية، كما أحضرت ترجمات لعدد من المسرحيات والروايات، حتى يمكنني تملك ناصية الخطاب الحضاري الغربي، وحتى تتعمق

www.scantopdf.eu

معرفتي بالتقاليد الأدبية الغربية، مثلما تملكت ناصية اللغة (وقد خضت تجربة فريدة في ذلك الصيف، إذ أحضرت ترجمة إنجليزية لرواية جرمينال لإميل زولا وقررت قراءتها دون توقف حتى أشعر بها ككل عضوي متكامل. وبالفعل، جلست لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ أقرأ وأقرأ وأقرأ دون أن أنام ونجحت التجربة، ولم أزدد حكمة!). وفي الفرقة الثانية تركت الكلية لبضعة شهور ودخلت مدرسة إنجليزية حتى تصبح الإنجليزية لغة حية بالنسبة لي. وبذلك، أصبحت قادراً على التحرك في تلك الأوساط شبه المصرية والتعامل معها بكفاءة غير عادية برغم عدم احترامي لها. وقد كان أمراً محزنًا للغاية أن أرى كل هؤلاء يعيشون في بلدنا، بعضهم لم يغادرها قط ولكنهم لا يعرفون عنها شيئًا، بل لا يتحدثون لغتها!

كان قسم اللغة الإنجليزية في الإسكندرية تجربة فريدة. فالتدريس فيه كان يأخذ شكل محاضرات حقيقية، لا دروس إملاء. (كانت ذاكرتي قوية إلى درجة أنني لم أكن أنسى أي شيء يُذكر في المحاضرات. وحينما كتبت رسالتي للدكتوراه وبعض مؤلفاتي عن الصهيونية بالإنجليزية والعربية، لم أستخدم الكروت المعتادة، برغم أنني قرأت عشرات المراجع واقتبست منها. وهذا يعود إلى أني كنت أتذكر الاقتباس والصفحة التي ورد فيها. ومع هذا يجب أن أذكر أنني لا أجيد الاستماع للمحاضرات، إذ إنني كثيراً ما أسرح نتيجةً لفكرة يقولها المحاضر وأبدأ في التأمل فيها). كان الأساتذة يدخلون ويلقون بمحاضراتهم ويفسحون المجال للطلبة كي يطرحوا أسئلتهم. وكانوا يقبلون الرأي الآخر بصدر رحب، بل ويرحبون به. كنت في هذه المرحلة من حياتي ماركسيّاً أقدم تفسيرات طبقية لكثير من النصوص الأدبية، فكانوا يحاورونني بشأن ما قلته وأحصل في نهاية الأمر على درجة عالية برغم اختلافهم معي. وكانوا يطلبون منا أن نكتب أبحاثًا حقيقية ونقرأ المراجع ونستشهد بها في مقالاتنا. وكانت الأسئلة في الامتحانات تتطلب إجابة يعمل فيها الإنسان عقله وخياله لا أن يجتر ما قاله الأساتذة من قبل. وكانت إجاباتنا تأخذ شكل مقالات طويلة يعرض فيها الطالب وجهة نظره. لم يكن أساتذتنا في الإسكندرية يعرفون التهاون في الدرجات، فالعملية التعليمية بالنسبة لهم كانت شيئًا جادّاً ومهمّاً. كان عدد الطلبة صغيراً يتناقص تدريجيّاً كل عام إلى أن يصل إلى عشرة أو أقل في عام التخرج. كانوا يطالبوننا بالكثير ولا يتهاونون، ولكننا كنا نتعلم المعرفة والسلوك القويم. ولعله لهذا السبب حينما ذهبت إلى جامعة كولومبيا والتحقت بقسم الدراسات العليا، وجدت أن

www.scantopdf.eu

مستواى أعلى من مستوى كثير من الطلبة هناك. في تلك اللحظة فهمت معاناتي في قسم اللغة الإنجليزية بجامعة الإسكندرية وما كنا نحمله من أعباء دراسية ثقيلة.

ورئيسة القسم، الدكتورة نور شريف، إنسانة على قدر كبير من الثقافة والحكمة. كانت محاضراتها عن تشارلز ديكنز Charles Dickens أو عن شعر أواخر القرن الثامن عشر (بما في ذلك شعر وليام بليك William Blake) أو عن حضارة القرن التاسع عشر متعة حقيقية. إذ كانت محاضرات حوارية بالفعل، تناقش معنا النصوص الأدبية وتفسرها تفسيراً واسعًا يتضمن العناصر الجمالية والتاريخية والأخلاقية. (ولذا حينما ذهبت إلى الولايات المتحدة حيث كان هناك استقطاب بين الاتجاه الشكلي أو الشكلاني [بالإنجليزية: فورماليست formalist] والاتجاه التاريخي، لم أسقط في هذا الاستقطاب ولم أختر جانبًا دون الآخر، بل ركزت على النصوص وعمقت من رؤيتي لها من خلال دراسة سياقها الاجتماعي والثقافي، وهو المنهج الذي مازلت أتبعه في دراساتي).

كانت الدكتورة نور على قدر كبير من الالتزام برسالتها كمعلمة: أن تسهم في بناء هذا البلد عن طريق تعليم أبنائه، وقد نجحت بفضل مثابرتها وإصرارها أن تكوِّن جيبًا فريداً. لم تكن تخضع أبدًا للضغوط الخارجية لتحافظ على رسالتها. أذكر مرة أن أحد الطلبة «الواصلين»، كان عضواً في الاتحاد الاشتراكي ورئيسًا لاتحاد الطلبة . . . إلخ. وكان هذا الطالب، شأنه شأن كثير من «الواصلين»، خائبًا، فرسب في اللغة الإنجليزية واضطر لإعادة السنة النهائية ثلاث مرات لهذا السبب. ويبدو أنه نجح، في هذه الآونة، أن يجعل أحد الموظفين في رئاسة الجمهورية يكتب رسالة يسأل فيها عن سبب الرسوب المتكرر لهذا الواصل الوصولي. فكان رد د. نور أن نجاح ورسوب مثل هذا الطالب ليس شأنًا من شئون رئاسة الجمهورية. كان هذا عام ١٩٦٢، حينما كان الجميع يخاف المخابرات. واضطر صاحبنا إلى أن يستذكر دروسه ويدخل الامتحان وينجح فيه شأنه شأن كل عباد الله. ومرة أراد العميد أن يعرف نتيجة إحدى الطالبات قبل إعلانها، فاستشاطت غضباً وأعطت النتيجة للفراش ليعلنها، وأخبرت العميد في الوقت نفسه أن فلانة التي يسأل عنها قد رسبت في ثلاث مواد.

لاحظت ابنتي نور (التي سميتها باسم أستاذتي) أن أصدقائي من الإسكندرية لهم طابع خاص، فأخبرتها أن هذه هي بصمات د. نور وقسمها. وسألتني مرة د. نور شريف عن

www.scantopdf.eu

أهم مصادري الفكرية، فكان ردي ضاحكًا هو : نور شريف. ثم أضفت بشكل جاد : إنني على مستوى من المستويات أعني ما أقول. ولا يمكن أن أتخيل نفسي دون هذه المرحلة من حياتي التي تعلمنا فيها كيف نفكر وننقد ونكتب .

كان الدكتور محمود المنزلاوي يلقي علينا محاضراته في تاريخ الحضارة في العالم، فيحدثنا بطلاقة وتلقائية عن كل شيء، ابتداءً من ملحمات هوميروس وانتهاءً بدكتور زيفاجو لباسترناك. وكان الدكتور محمد مصطفى بدوي يقرأ معنا النصوص ويرفض أي تعميمات لا تستند إلى استشهاد من النص. كان يضايقني أحيانًا كثيرة، ولكني تعلمت (أنا الذي أجيد التحليق في عالم الأيديولوجيا) أن أبحث دائمًا عن أرض راسخة، مهما حلقت. وكان كل من الدكتور المنزلاوي وبدوي يستضيفني في منزله ويعطيني الكتب ويعلمني فن القراءة والحياة .

ومن أهم أساتذتي في الإسكندرية الشاعر الإنجليزي الحديث البروفسير جون هيث ستبس John Heath Stubbs (الذي درست على يديه الشعر والرواية والتراث الكلاسيكي [اليوناني والروماني] وكتابة المقال). أذكر أنه في امتحان أدب القرن السابع عشر كان هناك سؤال عن مصادر شخصية الشيطان والموت والخطيئة في ملحمة **الفردوس المفقود Paradise Lost** لجون ميلتون John Milton. أمسكت بأطراف شجاعتي وقارنت بين لندن التي عاش فيها جون ميلتون ودمنهور التي عشت فيها (والتي رأيت فيها مواكب الحرفيين حتى الخمسينيات والتي تعود ولا شك إلى عصور سابقة). وقد عممت من تجربتي، أو على الأقل استخلصت منها نموذجًا تفسيريًا لدراسة ميلتون، فبيَّنت أنه حينما كتب الشاعر الإنجليزي ملحمته كان عصر النهضة قد بدأ بالفعل منذ قرن ونصف القرن، بل وكان قد بدأ يخبو وبدأت تظهر تباشير عصر العقل والاستنارة. ولكنني أشرت إلى أن الرأي السائد (آنذاك) الخاص بأن العصور الوسطى المظلمة اختفت في اليوم التالي تقريبًا لعصر النهضة هو اختزال مخل للأمور، لأن الأشكال الحضارية لا تختفي مع التحولات الاقتصادية والسياسية والفكرية، بل إنها تستمر قرونًا طويلة. ولذا، مع أن ميلتون كان يعيش حقًا في أواخر عصر النهضة فمن المحتمل أن يكون قد احتك بشكل يومي بكثير من الأشكال الحضارية من العصر الوسيط (تلك الأشكال التي استمرت لعدة قرون بعد عصر النهضة). ومن بين هذه الأشكال المسرحيات الدينية مثل مسرحيات الأخلاق (بالإنجليزية: موراليتي بلييز Morality Plays) وهي مسرحيات كانت مليئة بشخصيات

www.scantopdf.eu

مسطحة تشبيهية «أليجوريكال allegorical» مثل الشيطان والموت والخطيئة والتي كانت لا تزال تُمثَّل في أرجاء لندن. ولابد أنه تأثر بها واستوعبها ورسم بعض شخصياته بوحي منها.

فوجئت بأن البروفسير ستبس قد أعطاني النهاية العظمى، بل وأخبرني فيما بعد أنه لو كان بوسعه أن يعطيني أكثر من هذا لفعل، إذ إن ما قلته كان جديداً تماماً. وأضاف أن العالم الإنجليزي تيليارد Tillyard كان قد كتب لتوه دراسة تطرح مثل هذه الرؤية صدرت منذ شهر وأنه متأكد من أنني لم أقرأها، وأنني توصلت إلى ما توصلت إليه من خلال تجربتي. وازدادت جرأتي بعد تلك الواقعة، وتعلمت كيف أستند إلى تجربتي الخاصة ولا أنكرها وإلى تراثي ولا أتنكر له، بل أوظفهما في عملية الإدراك والتفسير، كما ازددت إيماناً بمقدرة العقل والخيال على التوليد.

وبعد عدة سنوات، كتبت تقريراً لكلية الآداب بجامعة الملك سعود بينت فيه أن من أكبر آفات البحث العلمي في العالم العربي انفصاله عن المعجم الحضاري الإسلامي وافتراض أن ثمة معرفة عالمية علينا أن نحصلها متناسين تراثنا وهويتنا. وأشرت إلى أنه لن يمكننا أن نبدع طالما استنمنا لهذه المقولة، فهي تعني المحاولة الدائمة «للحاق بالغرب» (فالعالمي في واقع الأمر هو الغربي). وضربت مثلاً بما يدور في أقسام اللغات الأوربية في العالم العربي، وكيف أننا ندرسها من وجهة نظر أصحابها وحسب، و هذا يعني سلباً كاملاً للذات تسبب في أن ذكاءنا يتناقص، إذ إننا نحاول عن وعي أو غير وعي أن نستبعد هويتنا الحضارية ومعرفتنا العربية أو الإسلامية وأي أدوات تحليلية مرتبطة بهذه الهوية وبتلك المعرفة. وهذا الاستبعاد هو في جوهره عملية قمع هائلة للذات، تستهلك جزءاً كبيراً من طاقة الإنسان لإنجازها، وإن نجح في إنجازها فإنه يستهلك ما تبقى عنده من طاقة (وأعتقد أن هذا هو ما يحدث للطلبة العرب في حضرة الأساتذة الأجانب. فالرقعة الحضارية المشتركة بينهم لا وجود لها البتة، ومن ثم ينبغي على الطالب العربي أن يصفي ذاته الحضارية تماماً، أي عليه أن يقمع ذاكرته الحضارية، حتى يمكنه أن يبدأ في التحصيل والفهم بدلاً من أن تشكل أرضية يقف عليها ويفهم من خلالها الآخر، بحيث يمكنه أن يستخدم تراثه الذي يطرحه في إدراك ما لا يعرف من خلال مقارنة نقاط الاختلاف والالتقاء).

www.scantopdf.eu

وحلاّ لهذه المشكلة، اقترحت تشجيع الباحثين على الانطلاق من منظور عربي إسلامي ومنظور عالمي مقارن يتجاوز المركزية الغربية التي سيطرت علينا جميعًا. فالانطلاق من منظور إسلامي عربي يمكن أن يساعد الباحث على اختيار موضوعات جديدة يترجم إبداعه من خلالها، كما أنه بهذه الطريقة يسترجع المنظور المقارن الذي يحوِّل الغرب من تشكيل حضاري مطلق إلى تشكيل ضمن تشكيلات حضارية أخرى، ولذا يمكننا أن ننظر إليه براحة دون قلق، إذ إنه إذا كان تشكيلاً ضمن تشكيلات أخرى فليس على المرء قبوله (كما يفعل دعاة الغرب) أو رفضه (كما يفعل بعض المتشددين) وإنما يمكننا أن ندرسه كمتتالية حضارية تتسم بما تتسم به من سلبيات وإيجابيات.

وفي الإسكندرية، قابلت شخصية أسطورية: محمد سعيد البسيوني، هذا العبقري المغمور الذي تتلمذ على يديه العشرات من مثقفي الإسكندرية. هو في مثل سني تقريبًا، لا يتحدث إلا قليلاً، يكتب الشعر والرواية والمقال. ما قرأت من أعماله متميِّز بدرجة تفوق الوصف (ولكنه يطرحها جانبًا ثم يمزقها أو يهملها تمامًا). ما الذي أصابه بهذا الحزن؟ هذا ما لم أتمكن من معرفته حتى الآن برغم مزاملتي له وتتلمذي على يديه منذ عام ١٩٥٤، أي منذ ما يقرب من نصف قرن تقريبًا. هو أسطورة حقيقية؛ سحابة سخية تمطر على من حولها ولا يُعرف كنهها. حينما كنا فتية نجلس على شاطئ سبورتنج كان يحدثنا في كل شيء: عن الأدب الروسي في القرن التاسع عشر، والأدب السوفيتي في القرن العشرين، عن معنى نتائج انتخابات البلدية في إيطاليا، عن أعمال جوته، ومؤلفات عبدالرحمن بدوي وتطور فكر ماركس، ويعرفنا على أشعار عبد الوهاب البياتي وعبد الصبور وأراجون وبابلو نيرودا وناظم حكمت (الذي عشقت شعره وقرأت معظم ما تُرجم منها إلى العربية والإنجليزية، وتأثرت به). وكان سعيد سخيًّا للغاية يزودنا دائمًا بالكتب، فقد كانت مكتبته الخاصة ثرية إلى أقصى حد. كما تعلمنا منه حب الموسيقى الكلاسيك، وكنا نقترض منه الإسطوانات التي نستمع إليها والكتب التي تساعدنا على التذوق. وحينما كنا نكتب شيئًا، كنا نعرضه عليه، فكان ناقدًا نافذ الرؤية، ودودًا لا ينافق. لم ينشر شيئًا حتى الآن، وإن كنت أعرف تمام المعرفة أن بعض كبار الكُتَّاب قد أخذ بعض كتاباته وانتحلها.

وأذكر أنه بعد صفقة الأسلحة التشيكية، ذكر لنا أن الاتحاد السوفيتي سيُفضل التعاون مع البورجوازيات الوطنية بدلاً من التعاون مع الأحزاب الشيوعية، أي أنه سيتراجع عن

www.scantopdf.eu

الخط الأممي الشيوعي، ومن ثم توقع أن يتم هجوم حاد على ستالين. وقبل أن يلقي خروشوف بقنبلته في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي التي رجت العالم رجّا، كنا شلة من الفتية نجلس على شاطئ سبورتنج ننتظر انفجارها. وحينما حدث الانفجار بالفعل، مادت الأرض تحت أقدام بعض كبار المفكرين في أنحاء العالم. مازلت حتى الآن ألقاه مرة أو مرتين كل عام، لأتحدث معه في كل القضايا الفكرية والسياسية وأنهل من معينه. وكان هو الذي نصحني بأن أدرس الأدب الإنجليزي بدلاً من الفلسفة، لأن اللغة الإنجليزية - كما قال لي - ستكون نافذة أُطل منها لا على الفلسفة وحسب وإنما على العالم ككل.

وقد قامت صداقة عميقة بين مجموعة من الأصدقاء (أ. جمال إمام - أ. فتحي أبو رفيعة - أ. علي زيد [رحمه الله] - أ. محمد ريان [رحمه الله] - د. هدى حجازي). مازلنا نلتقي نتذكر أيامنا في الإسكندرية قبل أن يُقذف بنا في طرقات المدن اللعينة - نتذكر عالمنا الجميل وأيام الأنس والصراعات النبيلة. نتحدث عن العالم وكأن مصيره يتوقف على نتيجة المناقشة، ونضحك وكأننا سنعيش أبداً. ود. هدى حجازي هي زوجتي التي قرأت كل ما كتبت وحاورتني كما لم يحاورني أحد (وحينما كبر ياسر ونور اشتركا في الحوار الذي كان يتسم أحيانًا بسخونة غير عادية، وهو ما جعل منزلنا من المنازل القليلة التي يتكهرب فيها الجو بسبب نقاش فلسفي). قدَّمت لي زوجتي الكثير في حياتنا الخاصة مما كان له أعمق الأثر في حياتي الفكرية العامة. ولكن هذه - كما قلت - سيرة غير ذاتية، ود. هدى إنسانة خاصة جداً ترفض أن تكون جزءاً من الحياة العامة، أو على الأقل حياتي العامة، فهي لها مواقفها الفكرية والسياسية المستقلة.

تجربتي المادية والماركسية

حينما كنت في السنة النهائية في مدرسة دمنهور الثانوية، وأنا بعد في السادسة عشرة، بدأت بعض الأسئلة الأساسية تهاجمني وبإلحاح شديد. وكان من أهمها أسئلة خاصة بأصل الشر في العالم والحكمة من وجوده، وعن أصل الكون. وكان هذا العام هو أول عام أدرس فيه مادة الفلسفة. وقد خلبت هذه المادة لبي تمامًا، فكنت أقضي الساعات الطوال في قراءة الكتاب المقرر. وقد ساعدني هذا على تنويع أسئلتي وتعميقها وصياغتها بطريقة متبلورة. وأذكر أنني قرأت قصيدة قصيرة أعتقد أنها لكامل الشناوي (في مجلة

www.scantopdf.eu

الرسالة الجديدة التي كانت قد بدأت في الصدور آنذاك). تقول القصيدة : «يا رب فيم خلقتنا وتركتنا ، / نَهْبَ الظلام فلا ضياءَ ولا سنا / وندبٌ فوق الأرض لا ندري بها ، / وندبٌ فوق الأرض لا تدري بنا / أنا من أنا ، أنا من أكون : وسيلةً ، / أم غايةً ، أنا لست أعرف من أنا / وهمٌ يساور ملحداً فيَرُوعه ، / ويخافه من كان مثلي مؤمنا» .

والقصيدة ليست من عيون الشعر العربي ، ومع هذا تركت فيّ أثراً عميقًا . ولكن من أكثر الأشياء تأثيراً أنها جعلت الإيمان الديني مسألة جبن ، وإحجام عن التساؤل ، وهذا ما لا يقبله من كان في سني . ولم يكن أحد في أعضاء أسرتي قادراً على أن يأتى بإجابة شافية مركبة لهذه التساؤلات ، فمعظمهم كان يصلي ويصوم بحكم العادة والتقاليد ، ومن هنا فالتساؤل الفلسفي يقع خارج نطاق تصوراتهم وأفكارهم . أما أقراني فلم يكونوا في مستواي الفكري ، ولذا عجزوا هم أيضًا عن محاورتى . وفي نهاية الأمر ذهبت إلى مدرس اللغة العربية (والدين) أسأله ، فكان رده بسيطًا ساذجًا ، إذ استخدم مفهوم السببية البسيطة وهو أن لكل مسبب سببًا ، وهذا العالم المخلوق لابد أن يكون له خالق ، ولذا فالأمور واضحة تمامًا . وهنا سألته ومن خالق الشر ، كان رده في غاية البساطة أيضًا ، إذ قال إن العقل يعجز عن إدراك مثل هذا ، وتركني وحيداً مع إجاباته البسيطة السهلة التي لم تشف لي غليلاً ، بل قوَّضت من إيماني . وبدأ التأمل ، وانتهى بى الأمر إلى أن أعلنت أنني لن أصلي ولن أصوم إلى أن أجد إجابة عن أسئلتي .

تلقى أعضاء أسرتي الخبر بشيء من عدم التصديق في البداية ، ولما كانوا قد تعودوا مني مثل هذه التحولات (حيث إنني قبل عامين اثنين كنت قد انضممت لجمعية الإخوان المسلمين ، وكنت أقضي وقتًا طويلاً من الليل في قراءة القرآن مع أحد الخدم) ، شتمني والدي ولكنه تركني وشأنى .

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، إذ انتقلت بعد مرور الصيف إلى الإسكندرية . وقابلت سعيد البسيوني ، وكان هو الآخر قد هزه الشك . فبدأنا نتحاور ، وعرفت مكان المكتبة الحجازية ، وكان صاحبها رجلاً مثقفًا يساعدنا على اختيار الكتب (على عكس بائعي الكتب هذه الأيام الذين يتسمون بالجهل المطبق ، فاهتمامهم بالكتاب ينتهي عند سعره ولونه !) .

اتسعت دائرة الحوار بالنسبة لي ، ومما سهل الأمر عليّ وجودي في الإسكندرية (وفي

www.scantopdf.eu

كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية وآدابها) مع مجموعة من الأجانب (اليونانيين والإيطاليين) ممن لا يحجمون عن مناقشة مثل هذه الأمور بحرية بالغة، أتاحت أمامي الفرصة لطرح المزيد من الأسئلة إلى أن أصبح الشك مكونًا أساسيًا في رؤيتي .

وقد دارت مناقشة حامية الوطيس بين أعضاء الندوة الشهرية التي أعقدها في منزلي ويحضرها من يشاء من الشباب (وقد نشأت بيني وبين كثير منهم صداقة فكرية وشخصية عميقة، أذكر منهم : أحمد عبد المجيد - مهدي الدجاني وزوجته فاطمة الزهراء وصديقتها نانسي عمارة - د. محمد طه - أحمد عبد الله - وائل أبو سعادات - محمد إبراهيم مبروك - داليا الأسود - محمد وعلاء عبد العزيز - لمياء سلام). وحينما قرأت عليهم مقتطفات من هذه الرحلة الفكرية، طرح بعضهم تساؤلات حول طبيعة ما حدث لي بالضبط، هل كان مجرد شك وبالتالي فهو بداية بحث، أم كان إلحادًا صريحًا ؟ وقد رأى بعضهم أنني أصبحت «ملحدًا» بالفعل، ولكن البعض الآخر أشار إلى أن إيماني ببعض المطلقات الأخلاقية والإنسانية يتنافى تمامًا مع الرؤية المادية الخالصة (التي تشكل جوهر الإلحاد)، وأن هذه المطلقات هي تعبير عن وجود شيء ما وراء العالم المادي، وأن كل ما حدث هو أن الشك قوَّض الإيمان البسيط وبدأت رحلة البحث وظلت مستمرة إلى أن بلورت لنفسي رؤية دينية جديدة لا تتسم بالبساطة والسذاجة. وأرى أن كلمة «ملحد» في حالتي تعني في واقع الأمر «مادي» من الناحية الفلسفية وحسب، أما من الناحية الفعلية فقد كنت ملتزمًا بالقيم المطلقة وبالحب كمقولة مجاوزة لعالم المادة (التجاوز بالمعنى العام هو «تخطي شيء ما وصولاً إلى ما هو أسمى منه»، والتجاوز هنا هو تخطي الرؤية المادية وصولاً إلى رؤية أكثر عمقًا وتركيبًا تستند إلى ما وراء المادة). هذا يعني أنني كنت أدور في إطار نموذجين: واحد نظري مجرد مادي (معاد في نفس الوقت لفكرة الإنسان والأخلاق والقيم ولأي شكل من أشكال الثبات والإطلاق)، والآخر متعين أخلاقي (يستند إلى إيمان بمنظومة أخلاقية تضرب بجذورها في عالم ما وراء المادة). وأعتقد أن هذه الازدواجية هي التي تعمقت بعد ذلك وتبلورت إلى أن كان عليّ أن أحسم الأمر وأصفي الازدواجية وأدخل عالم الإيمان والتركيب (والثنائيات المتفاعلة) .

هذا الشك خلق في نفسي فراغًا، فلم يعد من الممكن قبول الأطر القديمة. وكان لابد من أن يُملأ هذا الفراغ العَقَدي (أو الأيديولوچي). وبما أنني كنت ثائراً ضد الظلم الاجتماعي، كان من الحتمي تقريبًا أن أتوجه للماركسية. وقد أعطاني صديقي سعيد

www.scantopdf.eu

البسيوني بعض الكتب عن هذا الموضوع، كما أن أصدقائي الأجانب كان عندهم كثير من الأدبيات الماركسية. ثم فتحت المكتبات السوفيتية التي كانت تبيع الكتب السوفيتية (والماركسية) بأسعار رخيصة، فاشترينا الكثير منها، وبدأت أقرأ فيها بنهم. وكان اهتمامي بالماركسية فكريّاً في بداية الأمر، إلى أن التقى بي أحد أعضاء حدتو وجنّدني عضواً في الحزب عام ١٩٥٥. وفوجئت بتصعيدي في الحزب نظراً لمعرفتي باللغة الإنجليزية والمصادر الأولية للفكر الماركسي. وقد قمت بترجمة كتاب ماوتس تونج عن التناقض عام ١٩٥٧ (لعلها كانت أولى الترجمات إلى العربية). ومن الطريف أنني بموضوعية كاملة كنت أُبيِّن لهم في الحزب أنه يجب ألا أُصعَّد بسبب خلفيتي البورجوازية ولابد من اختباري والتأكد من «نقائي الأيديولوجي». ومع هذا، استمروا في تصعيدي ووجدتني مسئولاً عن خلية، وعضواً في لجنة منطقة الرمل (على ما أذكر). وكنا قد سمعنا أن الأستاذ محمود أمين العالم هو السكرتير العام للحزب الشيوعي الموحَّد (الذي بقي موحداً عدة أشهر وانفرط عقده مرة أخرى لعدة أحزاب صغيرة متصارعة متناحرة كما هو الحال مع الحركة الشيوعية عبر تاريخها).

ولعل أهم إنجازاتنا الحركية هو سيطرة الماركسيين على الجمعية الإنجليزية، وهي جمعية الطلبة في قسم اللغة الإنجليزية وآدابها بكلية الآداب جامعة الإسكندرية، وكان عدد أعضائها ثمانية، يمثل اثنان كل سنة دراسية. وكانت الانتخابات حرة ونزيهة. ونظراً لشعبيتنا بين الطلبة، إذ كنا نقوم بتنظيم النشاطات المختلفة (رحلات - مسرحية - قراءة مسرحية، أي أن نقوم بتمثيل مسرحية على أن يحمل كل ممثل الكتاب ويقرأ منه - مجلة حائط - مجلة سنوية مطبوعة)، كان مرشحنا يكسب الانتخابات. ولكننا قررنا ألا نحتكر «السلطة» ولذا كنا نسمح بانتخاب عدد من الطلبة غير الماركسيين للجمعية، على ألا يزيد عددهم عن ثلاثة، حتى يكون القرار النهائي في يدنا.

أما نشاطي الماركسي خارج الجامعة فكان أكثر خطورة، إذ كنت مسئولاً حزبيّاً عن مصنع شربيط لتجفيف البصل في الحضرة بالإسكندرية. وقد نجحت في تنظيم إضراب للعمال. ولكن والحق يُقال كنت أشعر بأن وجودي بينهم كان نشازاً، كما أن درجات الفقر بين بعضهم لم تكن تُصدَّق، وكانت تتزايد بسبب الإضراب. فكان كل هذا يصدمني ويولِّد فيَّ إحساساً عميقاً بالذنب بسبب مستواي المعيشي.

www.scantopdf.eu

وأنا أحب أن أعيش فكري بقدر الإمكان. أذكر أنني كنت أسير مع خطيبتي على الكورنيش، فرأت شحاذًا وأرادت أن تعطيه صدقة، فنهرتها «حتى يشعر هذا الشحاذ بالظلم فيثور»، وهي الاستجابة الماركسية التقليدية للتعاطف الفردي مع الفقراء (وقد تغيَّرت الأمور بعد ذلك، وبدأت أفصل الثورة العامة عن البؤس الشخصي).

وأحب أن أذكر هنا واقعة طريفة، إذ قدمني الحزب لطبيب أسنان (من مدينة الحمام بجوار برج العرب) يدعى د. حسن حسونة. وقالوا لي إنه من مؤسسي الحركة الشيوعية في مصر، وإنه قد يكون من المفيد تسجيل شهادته. وقد قص عليّ قصته، فقال إنه كان يعمل في مقتبل حياته مهرجًا في سيرك مصري كان يزور موسكو عند اندلاع الثورة البلشفية، وجنّده البلاشفة والتحق بإحدى مدارس الكادر الحزبية وعاد لتأسيس الحزب الشيوعي المصري. وقد دوّنت شهادته، ولكن حين قُبض عليّ تم تحريز هذه الأوراق، ولعلها في أحد الأراشيف. ولعل الدفتر المحرَّز لا يحوي شيئًا مهمّا، أو لعله يحوي بعض المعلومات المهمة عن بدايات الحركة الشيوعية المصرية.

وقد قُبض عليّ في الحضرة في أثناء توزيع المنشورات التي أصدرها الحزب يوم اندلاع ثورة العراق ترحيبًا بها. وقد نجح والدي من خلال نفوذه أن يخرجني من السجن بعد فترة قصيرة للغاية، وكتبت إلى الحزب وأخبرتهم أن التحركات شبه العلنية لابد أن تتوقف تمامًا، إذ توقعت حدوث صدام مع حكومة الرئيس عبد الناصر، وأنه لابد من التزام السرية.

وأذكر أنني في صيف عام ١٩٥٨ كنت أجلس مع أعضاء خليتي في حديقة الشلالات نتدارس معًا أيديولوجية حزب البعث (بحُسبانه حزب البورجوازية الصغيرة العربية [لم تكن المقولات التحليلية الأخرى، الحضارية والدينية، قد دخلت معجمي بعد])، حينما حضر أحد الرفاق الذي كان من المفروض أنه لا يعرف عن هذا الاجتماع شيئًا. وحينما سألته عن سر حضوره، قال إنه عرف من فلان (مسئولي في الحزب) أمر الاجتماع وأراد أن يستزيد علمًا! وكان هذا خرقًا لأبسط قواعد العمل السياسي السري (تبين فيما بعد أن هذا الرفيق كان يعمل لحساب السلطات!).

وكنت قد بدأت ألاحظ أن السلوك الشخصي للرفاق كان متناقضًا مع أي نوع من أنواع المثاليات الدينية أو الإنسانية، وأن كمية النرجسية عند بعضهم كانت ضخمة للغاية. وأنا

www.scantopdf.eu

لا أُمانع في وجود قدر من النرجسية عند البشر، فهذا أمر أساسي بالنسبة لهم، وخصوصاً بالنسبة للثائر، فالنرجسية آلية نفسية يدافع من خلالها عن نفسه ضد مجتمع يود ابتلاعه. ولكن النرجسية التي لاحظتها في كثير من الرفاق كانت بالفعل متطرفة، والحريات الخلقية التي كانوا يسمحون لأنفسهم بها كانت كاملة، أي أنهم في واقع الأمر كانوا شخصيات نيتشوية داروينية، لا علاقة لها بالماركسية ولا بأي منظومة أخلاقية، خاصةً أن ماركسية بعضهم كانت تنبع من حقد طبقي أعمى وليس من إيمان بضرورة إقامة العدل في الأرض. بل كثيراً ما كنت أشعر أن بعضهم كان ماركسيّا بحكم وضعه الطبقي وحسب وأنه لو سنحت الفرصة أمامه للفرار من طبقته والانضمام للطبقات المستغلة الظالمة لفعل دون تردد وطلَّق ماركسيته طلاقًا بائنًا. لكل هذا قدَّمت استقالتي، وطلبت أن أُعَدَّ من أصدقاء الحزب لا من أعضائه.

بعد خروجي من الحزب اعتُقلت إحدى طالباتي بتهمة الشيوعية، وكانت متزوجة من أحد «الرفاق». وبدأ زوجها يغازل أعز صديقاتها (وكانت هي الأخرى إحدى طالباتي). فنهرته وطلبت منه أن ينتظر على الأقل لحين الإفراج عن زوجته، رفيقته في النضال. فلم يستمع إلى النصيحة. ولكن حين خرجت زوجته من السجن طلقها وتزوج من صديقتها بطريقة داروينية لا علاقة لها باحترام الإنسان. وحينما جاءتني طالبتي تشكو مما حدث (وكانت دائمة السخرية مني لنزعاتي الأخلاقية والإنسانية «غير العلمية») قلت لها ساخراً: «لقد خدمت المرحلة السابقة، أما المرحلة اللاحقة فهي تتطلب زوجةً جديدة»، فانفجرت باكية. وأنا لَم أكن أقصد قط جرح شعورها، وإنما كنت أحاول أن أبيِّن لها أن المنطق الداروينى النيتشوي يؤدي إلى مثل هذه المواقف غير الإنسانية، وأن المنطق الذي تبنته في الماضي لا يتعارض مع ما حدث لها. ولكنني أدركت أن طريقتي كانت فظة إلى حدٍّ كبير (نزعتي نحو التجريد والتأمل مرة أخرى)، فطيَّبت خاطرها وأخبرتها بأن هذا الطلاق ليس نهاية العالم وأنها يمكنها أن تستأنف حياتها من جديد.

ومن أطرف القصص التي رواها أحد الرفاق السابقين الفلسطينيين ما حدث له مع مجموعة من التروتسكيين حضروا إلى معسكر تدريب الفدائيين، وبادروا صديقي بالسؤال عن إطاره النظري ومنطلقاته الفلسفية ونقط ارتكازه العقلية، فاحتار صديقي ولكنه أخبرهم بأنهم في هذا المعسكر يؤمنون بالكفاح المسلح، ثم أضاف أنهم يمكنهم أن يشاركوا بأنفسهم في عملية عسكرية في اليوم التالي. ثم أعد صديقي الماكر عدة سيارات

www.scantopdf.eu

لهم، وتقدم الموكب نحو منطقة جبلية. ثم بدأ الرصاص ينهال عليهم، بتدبير سابق، وبطبيعة الحال لم يصبهم بسوء. ولكن - كما أخبرني صديقي - تصرف التروتسكيون مثل أي بشر، أي اختبئوا تحت السيارات، ولكن ما فاجأه هو أن كل واحد منهم بدأ يتلو أدعية دينية ويطلب العون من الإله!

كانت تجربتي «الماركسية» القصيرة لها جوانبها السلبية والمظلمة دون شك، فاستخدام الصراع الطبقي أو وسائل الإنتاج كمعيار نهائي، والبحث الدائب عن العمال والفلاحين بحُسبانهم قوى فاعلة ستغير التاريخ (خصوصًا العمال بطبيعة الحال) قد جعلا رؤيتي للفكر والأدب رؤية اختزالية إلى أقصى حد، وفي هذا الإطار قرأت أعمال توفيق الحكيم وطه حسين وهيكل قراءة طبقية مبتسرة للغاية لم توفهم حقهم. بل وقرأت بعض عيون الأدب العالمي مستخدمًا نفس المعايير، وأعتقد أن هذا قد عاق تطوري الثقافي بعض الوقت. ولم أحضر الفترة «الأممية» التي كانت صفوف الحزب تزخر إبَّانها بالأجانب وبأعضاء الجماعات اليهودية وبالحماسة للحرب ضد فرانكو في إسبانيا وإهمال الجهاد ضد الصهاينة في فلسطين، فقد كان يُعَدُّ سقوطًا في قبضة الرجعية العربية (فحل الصراع العربي الإسرائيلي - في تصورهم - كان هو التحالف بين العمال والفلاحين اليهود والعرب ضد الرأسماليين والإقطاعيين العرب واليهود). لم أحضر هذه الفترة، ومع هذا كانت أصداء هذا التفكير الأممي واضحة في صفوف كثير من الشيوعيين، وكانت تتبدى بشكل واضح في حماستهم الدينية للاتحاد السوفيتي.

ومع هذا كان لتجربتي الماركسية آثار إيجابية كثيرة. وقد سألني مرة أحد الصحفيين: ماذا تبقى عندك من الماركسية؟ أجبت: لا شيء، وكل شيء. وهى إجابة سريعة، ولكنها تلخص علاقتي بالماركسية، فقد استوعبت منها الكثير، ولكن ما استوعبته انصهر تماماً في رؤيتي الإسلامية الإنسانية. أتاحت لي الماركسية فرصة التعرف على بعض النماذج الإنسانية (النبيلة والنيتشوية) عن قرب، كما أنني استوعبت بعض المقولات الماركسية مثل دور التاريخ واللحظة التاريخية في تحديد مواقف الأفراد وتوجهاتهم. وتعرفت على كثير من مقولات الفلسفة الألمانية من خلالها. كما أن محاولة التمييز بين الجدل الهيجلي والجدل الماركسي تشكل أساس إحدى المقولات المركزية عندي (نهاية التاريخ)، والإحساس بأن تفسير الظواهر الإنسانية لا يمكن أن يكون مركبًا بما فيه الكفاية دون أخذ

www.scantopdf.eu

الأبعاد التاريخية والاجتماعية والاقتصادية في الحسبان. وقد أكدت الماركسية (الإنسانية) لي مركزية الإنسان في الكون، وأن الإنسان مقولة مستقلة عن عالم الطبيعة، وأن التاريخ له هدف وغاية. وحينما ظهرت الفلسفة البنيوية في الستينيات وبدأت تكتسح المثقفين في الغرب بدأت في دراستها بشكل محموم، إذ إنني تصورت أنها ستحل المشكلة الأساسية التي أتصور أن الماركسية فشلت في حلها، أي علاقة البناء الفوقي (عالم الأفكار) بالبناء التحتي (عالم وسائل وقوى وعلاقات الإنتاج). ولكنني اكتشفت أنها محاولة لا طائل من ورائها، لأن البنيوية كانت تنتهي في عالم من المعادلات الرياضية الميتة. وأعتقد أن النزعة الماركسية الإنسانية هي التي حمتني من السقوط في العدمية والحيادية وانعدام الاتجاه والاحتفال بموت الإنسان أو بتحوله إلى معادلات رياضية يمكن التعامل معها رياضيّا! (هناك داخل الماركسية نزعة مادية متطرفة متناقضة مع النزعة الإنسانية، ولكنني كنت من أتباع الماركسية الإنسانية، ولم أسقط قط في مسألة «القوانين» العلمية المجردة. ولعل انجذابي للماركسية الإنسانية يعود إلى ذلك النموذج الكامن في وجداني، ولعل له أصولاً دينية، والذي يرى أن الإنسان ليس بكائن مادي، وأن هناك قانونًا للإنسان وآخر للأشياء والحيوان). كما أن الماركسية دعَّمت من بعض الاتجاهات الكامنة فيّ مثل رفض الظلم والاستغلال، وضرورة إقامة العدل في الأرض، وأهمية أن يتجاوز الإنسان ما هو قائم وألا يذعن له (فالإذعان والقبول بالأمر الواقع هما جوهر الجمود والرجعية). والأكثر من هذا زودتني الماركسية بأرضية نقدية أقف عليها لأطل على بيئتي البورجوازية في مصر، ثم فيما بعد على بيئتي الأمريكية في الولايات المتحدة، فلم أنبهر بما رأيت، كما حدث لكثيرين من أعضاء جيلي، ولم أنغمس في الاستهلاكية والرغبة في اقتناء السلع والأشياء والمزيد من السلع والأشياء. فمن خلال الماركسية أمكنني الاحتفاظ بالبُعد النقدي وباستقلالي عما حولي وبمقدرتي على رؤيته كلاًّ كاملاًّ وبالتالي تجاوزه.

وفي بداية الستينيات، بدأت النزعات الاشتراكية تظهر داخل النظام الحاكم، وبدأ تشكيل الاتحاد الاشتراكي. وحيث إنني كنت أتصور نفسي اشتراكيّا، فقد ملأت بطاقة عضوية. فرُفض الطلب إذ عُددْتُ شيوعيّا، بل مُنعت من السفر إلى الخارج (لولا تدخل أبي). وبعد عدة سنوات (بعدَ تأميم مصنع والدي) تم الاعتراض على تعييني في أحد المناصب «شبه القيادية» لأنني شيوعي ورأسمالي في الوقت نفسه (ولعله أضيف لها الآن صفة «إسلامي» مما يجعلني محكومًا عليّ بالهلاك بغض النظر عن الأيديولوجية

www.scantopdf.eu

الحاكمة!). وحينما كنت في الولايات المتحدة بدأ تشكيل ما يُسمَّى «التنظيم الطليعي»، ودُعيت إلى أول اجتماع، وأثرت قضية سرية هذا التنظيم، فكان هذا آخر اجتماع حضرت إليه. (ومن المؤسف أن معظم أعضاء هذا التنظيم الطليعي لم يكن عندهم أي التزام اشتراكي أو قومي. وقد استقر معظمهم في الولايات المتحدة، ولم يعودوا إلى الوطن ليساعدوا في بنائه، كما فعل غيرهم من الطلبة العاديين!). وأذكر مرة أنني كنت سألقي محاضرة عن الجدل الهيجلي في إحدى ندوات منظمة الطلبة العرب في جامعة سيراكيوز، وكان المحور الأساسي فيها هو الاشتراكية. وتصادف أن كان هناك أحد الطلبة من أبناء أحد أعضاء النخبة الاشتراكية الحاكمة، وحين أخبره أحد أصدقائه أن يحضر هذه الندوة رفض قائلاً: «إحنا بتوع الاشتراكية».

ومن الأمور التي تحيرني كثيراً، وتحير كل أعضاء الأسرة، السبب وراء تأميم مصنع والدي. فقد كان تاجراً كبيراً يمتلك تجارته وبعض العقارات، وقبل أن يدخل عالم الصناعة قابل بعض كبار المسئولين في حكومة الثورة الذين أكدوا له أن المطلوب هو تصنيع مصري، وأن الرأسمالية الوطنية لها دور في هذا. فقام والدي بنقل معظم رأسماله من التجارة والعقارات إلى الصناعة، فباع قطعة أرض ضخمة كان يمتلكها في الشاطبي (يوجد عليها بيت الطالبات الآن) واشترى مصنعاً من أحد الأجانب، وقام بتطويره. ولم يكن معروفًا عنه البذخ على الإطلاق، بل كنا نحن أبناءه نتهمه بالتقتير. فقد كنا، على سبيل المثال، نمتلك سيارة خاصة حرَّم علينا استخدامها، وكان يستخدمها للذهاب إلى المصنع أو لتوصيل العملاء، فقد كان يصر على أن نعيش مثل «أولاد الموظفين» ولذا كان علينا استخدام المواصلات العامة. ومع هذا، تم تأميم المصنع عام ١٩٦٤، أي بعد أقل من سنتين من شرائه، وقُدرت قيمته بطريقة متعسفة للغاية.

وقد لاحظ والدي - رحمه الله - بذكائه الشديد أن البيروقراطية العسكرية ستسيطر لا محالة على مقاليد الأمور، فطلب مني أن أدخل إحدى الكليات العسكرية، فضحكت من الاقتراح. وكان هو من هذه الناحية كريمًا جدّاً لا يتشبث برأيه. وبعد احتكاكه ببعض مديري المصانع الجدد، بعد عمليات التمصير والتأميم، كان يعود للمنزل مهمومًا بمستقبل الصناعة في مصر.

www.scantopdf.eu